

كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ٤ —

مجمع المراجع والأصول التاريخية

الخطوة التالية بعد اختيار موضوع البحث التاريخي هي عملية جمع المادة التاريخية عن ذلك الموضوع سواء من المراجع العامة والخاصة أو من المصادر والأصول المطبوعة والمخطوطة ، مع جمع ودراسة الآثار والمخطوطات التي تتعلق بذلك الموضوع^(١) . والمراجع العامة والخاصة تقيد في إعطاء فكرة عامة عن العصر التي يكون موضوع البحث جزءاً منه . وعدم الاستفادة بما كتبه السابقون يعتبر منيعة للوقت وإخلالاً بشروط للبحث العلمي ؛ فينبغي على كل جيل من المؤرخين أن يعرف ما كتبه السابقون ، وأن يبدأ حيث انتهوا ، وأن يعمل مؤرخ اليوم لكي يهد مؤرخ للغد . والمراجع العامة والخاصة تساعد أيضاً في كشف بعض الأصول التاريخية المجهولة وتفتح آفاقاً جديدة للبحث . وللباحث الذي يكتب في ناحية من تاريخ مصر في القرن الثامن عشر مثلاً ينبغي أن يدرس بعض المراجع التي تناولت تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، كما يدرس بنائياً المراجع التي تبحث في تاريخها أثناء القرن الثامن عشر ، ويطلع بما كتبه الرحالة الذين زاروا مصر من الشرق ومن الغرب ، ويدرس ما دونوه من المعلومات والشهادات ، وذلك لكي يفهم تاريخ العهد المملوكي الذي يرغب في الكتابة عنه

وكيف يمكن للباحث أن يعرف كل المراجع العامة والخاصة والأصول المطبوعة من الناحية التي يرغب في دراستها ؟ الإحاطة بذلك ليست أمراً سهلاً . ويمكن للباحث في أول الأمر أن يستعين بالإطلاع على بعض المقالات في دوائر المعارف فيعرف

(١) يسمى الدكتور أسد رستم عملية جمع المصادر والأصول بالتشميش بمعنى الجمل ، وأخذ ذلك من المحدثين مثل أبو حاتم الرازي من أميان القرن ٥٣٠ هـ . وانجم كتاب الدكتور رستم من مصطلح التاريخ ص ١-٦

بعض المراجع والأصول التي نهجه . ثم يرجع إلى كتب الليبليوغرافيات (المراجع) التي تناول موضوع دراسته . ولقد أصدر التربويون أنواعاً مختلفة من الليبليوغرافيات ، فمنها الليبليوغرافيات العامة ومنها الخاصة بقطر أو بمصر أو بشخصية معينة ؛ وبعضها يكتب في ذكر المراجع والمصادر وأما كني وسنن طبعها وعدد صفحاتها ؛ بينما للبعض الآخر يعطى مذكرات وصفية موجزة عن تلك المراجع والأصول المطبوعة^(١) . إن هذا لا يكفي ، لأن كتب المراجع لا تكون وافية في كل الأحوال ، وهي في الغالب لا تذكر شيئاً عن المقالات التي تنشر في المجلات التاريخية وهي كثيرة ومتنوعة ؛ فن للضرورة إذاً مراجعة فهرس هذه المجلات للإلمام بما كتب فيها عن الموضوع المعين . وكذلك يلزم للباحث أن يراجع فهرس دور الكتب المطبوعة وغير المطبوعة . ويجمع الباحث من كل هذه للتواحي

(١) بعض أمثلة من كتب الليبليوغرافيا :

International Bibliography of Historical Sciences — ١
Edited by the international committee of Historical
Sciences, Washington

ويصدر هذا المجلد مرة في السنة ابتداء من ١٩٢٦ ويشترك في وضعه طائفة من العلماء والباحثين ، وله لجان فرعية في أقطار أوروبا وأمريكا وهو يعبر قوائم مختارة بالمراجع والأصول التاريخية التي صدرت في عام مكتفياً بذكر مكان وتاريخ الطبع مع عدد صفحات الكتاب . والمؤلفات التي يوردها تشمل جميع نواحي التاريخ ؛ فتتناول طرق البحث التاريخي والعلوم المساعدة ودور الأرشيف والمؤلفات العامة عن التاريخ الدستوري والاقتصادي وعن تاريخ الحضارة وعصر ما قبل التاريخ وشعوب الشرق القديم وتاريخ اليونان والرومان وتاريخ الكنيسة القديم وتاريخ يزنطة وتاريخ العصور الوسطى في الغرب ونواحي مختلفة من التاريخ الحديث مثل التاريخ الديني والطقس والاجتهاد وتاريخ العلاقات السياسية وتواريخ آسيا وأفريقيا وأمريكا ...

Bibliographie Critique des Principaux Travaux pa- — ٧
rus sur l'Histoire de 1600 à 1914 en 1932 et 1933.
Paris, 1935

نشرت هذا المجلد جمعية التاريخ الحديث في باريس . وهو يعطي قوائم عن نواحي التاريخ العام والخاص مع وصف موجز لما تناوله من الموضوعات

٣ — من كتب الليبليوغرافيات عن قطر معين نجد عن سوريا مثلاً :

Röhrich, R. : Bibliotheca Geographica Palaestinae. Berlin, 1890
Masson, P. : Bibliographie Française de la Syrie. Marseille, 1919
ونجد عن مصر :

Ibr. Hilmy, Prince : The Literature of Egypt & The Soudan
2 vols. London, 1886—88

Maucier, R. : Bibliographie économique, juridique et sociale
de l'Égypte moderne (1798—1916) Le Caire, 1918

ونجد من تاريخ كمال أتاتورك مثلاً :

Melzig, H. : Atatürk Bibliyografyası. Ankara, 1941

أسماء المراجع والأصول التي تعنيه ؛ ويحسن أن يستعين بعمل
فهرس أيجدى على جنادات من الكرتون ويضع عليها ملاحظاته ؛
وإذا اقتضى الأمر أن يكتب ملاحظات مطولة فليدونها على
أوراق خاصة . ثم يبدأ في قراءة الكتب التي يصل إليها ويأخذ
منها مذكرات باللغة الأصلية في المواضيع الهامة على الأقل ،
مع وضع أرقام الصفحات ؛ ويرجى قراءة الباقي لحين الوصول
إليه بتصويره بالفوتوستات أو بالسفر إلى مكان وجوده

ثم تأتي الأصول التاريخية التي لا توجد في أغلب الأحوال
كتب يبلوغها تدرج عليها . ومن هذا النوع نجد الوثائق
والرسوم والصور ومخططات الإنسان . . . والوثائق عبارة عن
القوانين والأوامر والنصح والأحكام والفتاوى والمقود والمراسلات
والمجاهدات والمذكرات والتقارير . وهي تحفظ في الأصل عند الملوك
والأمراء وفي المحاكم والأديرة أو عند الأشخاص الماديين .
وليس من الضروري وجود وثائق واقية عن كل حوادث التاريخ ؛
فالكثير منها تنطمس آثاره وتزول دلالاته لأنها تتعرض في
ظروف مختلفة لتلف والضياع مثل ظروف الثورات أو الحرائق
أو الزغبة في التخلص منها وإتلافها عمداً عند ما تكون في حوزة
من لا يفهم قيمتها التاريخية ، أو من يهمله منع تداول معلوماتها
بين الناس . وبذلك يضيع الكثير منها بالنسبة للتاريخ ؛ وكان
الأفكار والحوادث التي كانت تحملها في طياتها وثناياها لم تكن
في الوجود . وعلى ذلك فإن المؤرخ كثيراً ما يجد فجوات في
التاريخ لا يستطيع أن يملأها . وسنبتق حلقات كثيرة من
التاريخ مجهولة إلى الأبد ؛ وليس هناك ما يمكن أن يعض من
ضياع هذه الوثائق ؛ وحيث لا توجد وثائق لا يوجد تاريخ .
وينطبق ذلك على كل آثار الإنسان

وعملية البحث والكشف عن الوثائق Heuristic هي أهم
عملية أساسية لكتابة التاريخ . وكشف كية من الوثائق الهامة
عن الموضوع اللين هو الذي يحدد إمكان الاستمرار في بحثه
أو المدول عنه إلى غيره . والباحث الذي يكتب التاريخ وقد قاته
الوصول إلى مجموعة من الوثائق الأساسية لا يكون لبحثه قيمة
علمية مهما كانت كفاءته وقدرته على العمل . والباحثون الأولون
في التاريخ قد لاقوا صعوبات جمة في سبيل الوصول إلى الوثائق

التاريخية ؛ وإذا كانت الحوادث التي قصدوا أن يكتبوا عنها قريبة
للمهد من العصر الذي عاشوا فيه ، فإنهم كانوا يرجعون إلى
أقوال بعض الأشخاص الذين شهدوا الحوادث ويوازنون بينها
ويستخلصون منها ما يمكن الوصول إليه من الحقائق التاريخية .
على أن هذه الطريقة لا تكون سليمة دائماً نظراً لتعرض الروايات
للسفوية للتشهير والتعديل ، والأفكار والآراء والأقوال للسفوية إذا
مادونت أصبحت مسجلة ووقف تغييرها إلى الحد الذي وصلت إليه .
فالوثائق ضرورية جداً للمهد القريب من المؤرخ فضلاً عن للمهد
البعيد عن الزمن الذي عاش فيه . والوثائق في أغلب الأحيان
تنتقل بالتدرج من حوزة الأشخاص إلى الأماكن العامة وتحفظ

في دور الأرشيف ودور الكتب وفي المتاحف والكنائس
والكثير من الوثائق المحفوظة في الأماكن العامة قد وضعت
عنها كتالوجات وفهارس مختلفة ؛ إلا أنها في أحوال كثيرة
أيضاً لا تزال غير واقية ، وأغلبها يكتبي بوضع أرقام مجلدات
الوثائق مع بيان للشهور والسنوات التي تنقلها ، بدون أن تصف
محتوياتها ، وهي بين قديم وحديث ومخطوط ومطبوع . كما أنه
توجد وثائق في مصر وفي الخارج لم تنظم ولم توضع عنها الفهارس
الأولية بمد ، وهذه بالنسبة للباحثين تعتبر في حكم المجهولة ،
ولا يمكن الاستفادة منها قبل تقسيمها وترتيبها ترتيباً أولياً على
الأقل ، وهذا كله يبين صعوبة البحث عن الوثائق . إلا أن التقدم
مستمر في هذا الباب . ولقد وضعت كتالوجات وصفية لبعض
نواح من الوثائق في دور الأرشيف بالشرب ؛ واهتمت الحكومات
التربية بإرسال بشرات خاصة إلى الخارج لكي تبحث في دور
الأرشيف الأجنبية عن الوثائق التي تهتم تاريخ بلادها وعند ما فتح
أرشيف اللغاتيكال للباحثين أنشأت كثير من المدول معاهد خاصة
في روما لكي يشتغل أعضاؤها بجمع ونسخ ووضع فهارس عن
الوثائق التي تهتم في اللغاتيكال ، فهكنا فعلت إنجلترا وفرنسا
وألمانيا وأسبانيا وبلجيكا والاندانرك . . .

وكيف يمكن للباحث اللبندى أن يشق طريقه في هذا البحر
للحجاج ؟ لا ريب في أن طريق البحث وعمر شاق ؛ ولا بد من
الصبر والجلد ، ويستطيع للباحث أن يتصفح فهارس وكتالوجات
الوثائق التي يظن أنها تحوى شيئاً يعنيه ، وبعض هذه الفهارس

وتنتفح أمامه سبيل لم يكن يعرفها من قبل ، وبذلك يمكنه الوصول إلى مجموعة من المخطوطات الأساسية التي لم تدرس من قبل

والباحث في أرشيف الحكومة للتاريخي في فلورنسا^(١) عن تاريخ المصادمات البحرية بين الأسطول العثماني وبين السفن للتسكانية في القرن السابع عشر مثلاً ، يجد في الفهارس والكتالوجات المطبوعة والمخطوطة بدار الأرشيف بعض ما يفيد في فحص مجلدات خاصة ؛ ولكن هذا لا يكفي ، بل عليه أن يدرس عشرات من المجلدات في سنوات ممتدة وفي نواح مختلفة ؛ فيفحص مثلاً المجلدات التي تحوي مراسلات ممثلي فلورنسا في الدولة العثمانية ، ومدكرات للتجار الفلورنسيين ، وتقارير رجال سان ستيفانو الواردة إلى حكومة فلورنسا ، والتي تحوي أخباراً عن حوادث ذلك الاصطدام . وكذلك يفحص المجلدات التي تضم صور المراسلات الصادرة من حكومة فلورنسا إلى ممثليها في الشرق الأدنى ، وإلى للتجار الفلورنسيين ، وإلى رؤساء وقواد نظام سان ستيفانو^(٢) . والفرض نفسه ينبغي أن يفحص أيضاً عشرات من المجلدات عن المراسلات الواردة من صقلية والبندقية وجنوا مثلاً إلى حكومة فلورنسا ، والتي تتضمن أخباراً عن هذه المصادمات ؛ ثم المجلدات التي تحوي صور المراسلات الصادرة من فلورنسا إلى كل تلك الجهات في هذا الخصوص ؛ وينتج عن ذلك الجهود جمع مادة أصلية مهمة لم تكن معروفة من قبل عن موضوع البحث

ولا ينبغي على الباحث أن يقتصر في جمع وثائق البحث الذي يدرسه على أرشيف واحد فقط ؛ فن الضرورى للبحث عن وثائق أخرى — إن وجدت — في أمكنة متعددة ، ونتناول نفس الموضوع ، فيتجه الباحث إلى أرشيف الحكومة للتاريخي في فيينا^(٣) ، لأنه يرى أن علاقات السلم والحرب كانت قوية دائماً بين الدولة العثمانية وامبراطورية النمسا ، وأنه لا بد من أن أخبار

مطبوع وأغلبها مخطوط . ومن حين حظ للباحث أن تكون بعض الوثائق اللازمة له قد حصرت ونظمت ووضعت عنها للفهارس . ولكن سبق أمامه دائماً مناطق مجهولة لا بد من الإقدام على كشفها بنفسه . والباحث عن الوثائق يشبه المنقب عن الآثار الذي يقال سنوات عديدة يبحث في مناطق مختلفة حتى يثر في النهاية على ما يرضيه ويرضى العلم . ولتأخذ بعض الأمثلة العملية عن جمع الوثائق والأصول التاريخية . فالباحث في دار المحفوظات المصرية بالقاهرة عن تاريخ محمد علي قائد الجند الألباني ، بعد رحيل رجال الحملة الفرنسية عن مصر وقبيل ولايته حكم مصر ، سيجد مادة قد وضعت عنها بعض المجلدات الأولية فيستعين بها في فحص بعض دفاتر مراتب للمساكر الألبانيين ابتداء من ١٢١٧ هـ ، وسيجدها مكتوبة بخط القيرمة ؛ فلا بد من الاستماعة على قراءتها بمن يعرف ذلك الخط ، حتى يتلم الباحث قراءته بها . وصيغته للباحث في هذه الدفاتر على اسم « محمد علي أغا سرچشمه عساكر أرناؤود^(٤) » . وسيلم بعض أشياء عن مراتبها وعن تكاليف عساكره . ثم يفحص أيضاً دفاتر « كشيده ديوان مصر^(٥) » ؛ ويجد أنها تحتوي على صور فرمانات سلطانية وأوامر باشوية بعضها يخص محمد علي أغا . ثم يبحث بعض الأوراق التركية التي لم يتم وضع سجلات لها ، وهي عبارة عن بعض أوامر باشوية أو تذاكر ديوانية خاصة بمراتب جند محمد علي^(٦)

وقد يسافر الباحث في ناحية من تاريخ الشام إلى سوريا لمقابلة بعض المارفين بتاريخ للبلاد وبدور للكتيب بها كالفكتور أسد رستم فيجده قد انتقل إلى المصيف ، فيتيه إلى ظهور الشوير ويتحدث إليه طويلاً ويأخذ منه ما يريد . وقد يحاول الاتصال بالأستاذ إسكندر الملقوف فينتقل إليه في زحلة ويستفيد بخبرته ومعلوماته . ثم يقصد دمشق فيجد الأستاذ كرد علي قد غادرها إلى شمالي سوريا ، وفي انتظاره يجتمع بالأستاذ عبد القادر المنبري وبالأستاذ حسني الكسبي فيتحدث إليهما

(١) Archivio di Stato di Firenze

(٢) أنشأ كوزيمو الأول جراتدوق تسكانا (١٥٣٧ — ١٥٧٤)

نظام سان ستيفانو البحري للدفاع عن سواحل تسكانا ولهاجة السفن

العثمانية في البحر الأبيض المتوسط

Hana-Hof-Und Staatsarchiv, Wien (٣)

(١) أي قائد الجند الألباني

(٢) أي دفاتر قيد ديوان مصر

(٣) علم هذه الدفاتر عند زميلي الأستاذ محمد عبد توفيق الوثائق

الترجم بدار المحفوظات المصرية بالقاهرة

والرسوم والصور وثائق مهمة لأنها تحفظ لنا أبداً أفكاراً وأجبالاً ومناظر وأزياء مختلفة قد تثيرت معالمها أو زالت من الوجود ، ولا تستطيع أن تعبر عنها بوضوح الكتابة الوصفية . وتزداد أهمية التصوير بمد تقدم استعمال الفوتوغرافيا في الوقت الحاضر ، فهي تسجل مشاهد عديدة للإنسان ولآثار الحضارة والعمران ومن الأصول المهمة أيضاً نجد آثار الإنسان ومخلفاته وتقاليد ، كما عرفنا ذلك في مقال سابق^(١) . وأعمال الحفر والتنقيب تكشف عن مخلفات العصور القديمة ؛ والبحث في بعض الأماكن يؤدي إلى العثور على آثار الإنسان في العصور الحديثة . ويجب على الباحث أن يشاهد ويدرس بنفسه آثار العصر الذي يكتب عنه . وينبغي أن يزور المباني القاعة التي كان رجال العصر يعيشون فيها ، والجدران التي كانوا يروحون عن خواطرم في أرجائها ، وأن يصرف طرق المعيشة والأزياء وأدوات الحرب وآلات الموسيقى . . . وفي الغالب تحول المباني إلى متاحف وتجمع فيها بعض آثار الإنسان . ولا ريب فإيه من الضروري للمؤرخ أن يمشي فترة خلال هذه التذكريات التي تأدت من الماضي إلى الحاضر ، وأن تشيع في نفسه هذه الرؤى وتلك الخلدجات التي أحاطت رجال العصر الذي يدرسه

مسن عثمانه

(بني)

استدراك : في العدد ٤٢٦ من الرسالة من ١٠٨٦ قد سقط عنوان المقالة ٣ وهو « اختيار موضوع البحث التاريخي » فليزم التنويه

(١) راجع مجلة الرسالة عدد ٤٢٣ من ١٠٠٢

إعلان وتحذير

تمنن الست فاطمة عبد العزيز نور من ناحية كفر دمية القديم مركز طنطا غربية بأنه إذا ظهرت لدى أي شخص أوراق مهسومة بختمها التي كان بطرف أخيها خالد افندي عبد العزيز نور من الطويلة تعتبر ضرورية ويماقب حاملها وقد أخذت من أخيها المذكور إقراراً بذلك وتحملت منه الختم ، وكسرت وجددت بدلاً منه من هذا التاريخ .

الاستخدام البحري بين السفن العثمانية والسفن الترسانية قد وصلت إلى مثلي انما في القسطنطينية ، وأنهم قد أرسلوها بدورهم إلى حكومة فينا . ويكتب الباحث إلى مدير أرشيف فينا فيرسل إليه المعلومات التي يعرفها ؛ وملخصها أن المادة الموجودة من ذلك الموضوع قليلة جداً وعديمة الأهمية . إنما ذلك لا يعني أن هذه المعلومات صحيحة ، ولا يقتنع الباحث بردي مدير الأرشيف . ويسافر بنفسه إلى فينا ، ويجد أن الكتالوجات الموجودة لا تنفيذ شيئاً ؛ ولكن ذلك لا يمنعه من البحث ؛ فيعمل بعض الزمن وينتهي به الأمر إلى كشف طائفة ممتعة من الوثائق الألمانية والإيطالية عن الموضوع الذي يدرسه ، فيحملها إلى مدير الأرشيف ويرجوه أن يدرجها في كتالوجاته . وتلاحظ أن الباحث يندسخ بنفسه جزءاً من الوثائق التي يتر عليها ، ويمكنه اختصاراً للوقت أن يشرك منه بعض الإخصائين في نسخ جزء من الوثائق ، كما يمكنه أن يصور بالفوتوستات جزءاً آخر على حسب الحاجة . ولا يكتفي الباحث بكل ذلك ، بل يعض في البحث والكشف عن الوثائق في أماكن أخرى مثل باريس ومدريد ولندن . . . ويدرس الباحث للادة التي جمعها ويقارن بين مجموعات الوثائق التي كشفها ويوازن بين معلوماتها وبين ما وصل إليه من المراجع والأصول المطبوعة ، ويستخلص الحقائق التاريخية التي يمكنها الوصول إليها ، كما سنرى ذلك في المقالات التالية . وهذه كلها أمثلة عملية تعطى فكرة عامة عن كيفية البحث عن الوثائق والأصول التي تظل مجهولة للسلم حتى يكشف عنها . وإلى آخر لحظة يظل الباحث يوقع كشف أصول جديدة توضح أو تفسر ما وصل إليه من الحقائق مما قد يضطره إلى تعديل معلوماته إذا لم يكن قد طبع بحثه بمد ، أو إلى تغييره إذا ما أعاد طبعه^(٢)

ويصل بالوثائق الرسوم والصور وهي مهمة من الناحية التاريخية . والأثر الذي يحدنه الشكل يسجله الفنان على الورق أو على الرمز ، والوصف الكتابي مفيد في بيان عادات وخلق نابايون مثلاً ؛ ولكن رسم الفنان إياه أو صنع تمثال له يعطينا فكرة مجسمة تضاف إلى ما نعرفه من أوصافه بطريق الكتابة .

(١) الباحث لا يمكنه الرجوع إلى وثائق أرشيف القسطنطينية مثلاً لعدم ترتيبها وتنظيمها بمد مما لا يسمح ذلك بدراستها الآن